هوامش

«ماتت» بحيرة ساوة في العراق. لم تعد تحتوي قطرة ماء واحدة بعد آلاف السنوات من وجودها. وذكّر ناشطون بيئيون بتحذيرات سابقة أطلقوها للجهات الحكومية التي لم تتحرك

هذا كلّ ما تبقّى من البحيرة (اسعد نيازي/ فرانس برس)

بحيرة ساوة

«نهاية شيء جميل» في العراق

بغداد ـ **كرم سعدي**

شهد العراق خلال الأيام الأخيرة زوال معلم جيولوجي وبيئي بارز في طبيعته تمثل في جفاف بحيرة ساوة التي تتمتع بمواصفات فريدة على صعيد التكوين الفيزيائي تجعلها ذات شهرة عالمية باعتبارها تمزج بين عوامل طبيعية وأخرى مفتعلة. وأثار ذلك استياءً واسعاً لدى العراقيين، ولا سيما سكان محافظة المثنى الجنوبية التي تحتضن البحيرة، وتعتبر من أهم رموزها الجغرافية والتاريخية. و«نعى» الرئيس العراقي برهم صالح وجود البحيرة، وكتب على «تويتر» إنه «تذكير قاسٍ بخطورة التغييرات المناخية التي تشكل خطراً وجودياً لمستقبل العراق والمنطقة والعالم». ويرى ناشطون بيئيون أن زوال البحيرة التي يبلغ عمرها آلاف السنين، «يشير إلى مخاطر الجفاف الكبيرة التي تحدق ببحيرات أخرى بسبب الإهمال». ويقول أحدهم ويدعى هيثم الصبيحاوي لـ«العربي الجديد»: «نفذت سابقاً مع مجموعة من الناشطين ومحبي البيئة والتخييم جولات لاستكشاف الطبيعة شملت أيضاً بحيرة ساوة التي حذرنا منذ سنوات من مخاطر انتهاء وجودها بعدما بدأت مساحتها تتقلص في شكل كبير حتى في فصل الشتاء وليس فقط فصل الصيف الذي كان يشهد تناقصاً في مياهها، لكن الجهات الحكومية التي خاطبناها قالت إنها تتابع حالة البحيرة، وتنفذ محاولات لمنع جفافها. لكن يبدو أن جهودها فشلت». وبلغ طول بحيرة ساوة 4,47 كيلومترات وعرضها 1,77 كيلومتر، ومستوى المياه فيها بين متر واحد وأربعة أمتار. ويقول الخبير البيئي رياض العاني لـ«العربي الجديد»: «يمكن القول أن بحيرة ساوة ماتت، لكن هذا الموت قد يكون مؤقتاً أيضاً في حال نجحت الجهات الرسمية المسؤولة في إنعاشها». يضيف: «على الرغم من تصريح مسؤولين وتحدث وسائل الإعلام عن جفاف البحيرة بالكامل، يمكن الحفاظ على وجودها ولو بنصف أو حتى ربع حجمها الطبيعي إذا اتخذت الجهات المسؤولة التدابير اللازمة».

ويتحدث عن سببين لجفاف البحيرة، أولهما طبيعي يرتبط بما يعانيه العالم من ارتفاع في درجات الحرارة، وما يعانيه العراق من انخفاض كبير في معدلات سقوط الأمطار، وحدوث تحركات في طبقات الأرض الزلزالية. أما العامل الثاني فبشري يتعلق بانخفاض مياه نهر الفرات الذي يغذي البحيرة نتيجة تقليل تركيا التي ينبع نهر الفرات منها حصة المياه، ما حرم بحيرة ساوة من المياه، وكذلك مئات آلاف من الحقول والمزارع، علماً أن الجهات الحكومية لم تتخذ أي إجراء لمنع الفلاحين وأصحاب المصانع المحيطة بالبحيرة من الاعتماد على المياه الجوفية ما أثر على روافد بحيرة ساوة أيضاً». من هنا يرى العاني أن «عودة الحياة إلى البحيرة يتطلب العمل في شكل حثيث لتطهير محيطها من الآبار، وتنفيذ إجراءات ديبلوماسية لحث تركيا على زيادة نسبة المياه في نهري دجلة والفرات، علماً أننا سنشهد موت بحيرات أخرى إذا استمرت هذه الحال». وتعتبر بحيرة ساوة من البحيرات الفريدة في العالم نتيجة ارتفاع نسبة الملوحة فيها بنسبة أكبر مرة ونصف المرة من تلك في مياه الخليج العربي، ويختلف فيها لون الماء بين الأخضر الداكن (قرب الضفاف) والأزرق في العمق، ما يجعلها تتميز بمواصفات جذابة. ويعتبر سكان محافظة المثنى البحيرة ملاذاً مهماً للتنزه وقضاء وقت بالاستجمام، كما اعتاد مواطنون من محافظات أخرى وأجانب على قصد هذا المعلم.

يقول حسين عبد الرسول الذي يملك محلاً لبيع الفاكهة على الطريق المؤدية الى البحيرة، لـ«العربي الجديد»: «كان يمكن أن تجلب بحيرة ساوة فوائد اقتصادية مهمة لمحافظة المثنى عبر إنشاء قرية سياحية في محيطها يجذب السياح، وتوفر فرص عمل لعدد كبير من شباب المحافظة».

ويؤكد أن وجود البحيرة رفع مداخيله المادية قبل سنوات، وهذه كانت حال جميع بائعي المواد الغذائية والأطعمة والفواكه على الطريق المؤدية إليها، باعتبار أن الناس أقبلوا على شراء البضائع في طريق ذهابهم إلى البحيرة. وأعتقد بأنه لو أولت الجهات المختصة الأهمية اللازمة للبحيرة لما جفّت وتحولت إلى مقصد سياحي وطني كبير، ومصدر رزق لأبناء المحافظة».

وما يميّز بحيرة ساوة قدرتها على تكوين جدران مالحة تحيط بكل جهاتها، وتشكل حاجزاً للحفاظ على المياه يخلق أيضاً أشكالاً تجذب الانتباه من ترسبات الأملاح التي تشبه المنحوتات الفنية.

وتعتبر الفنانة التشكيلية رزان شاكر هذه الميزات مكاناً جذاباً لمحبي الطبيعة وتكويناتها والفنانين التشكيليين وهواة التصوير الضوئي، وتكشف لـ«العربي الجديد» أنها وثّقت مع عدد من زملائها الرسامين مظاهر طبيعية للبحيرة في رسومات عدة. وتقول: «لا يمكن تصديق ما حصل. أمر عجيب أن يضحي المسؤولون في بلدنا بمثل هذه الأعجوبة البيئية، وهذا أمر خطير يجري في بلدنا. هناك لا مبالاة تفوق الوصف تتسبب في كوارث تقضي على رموزنا البيئية الجميلة. يتعرض نهرا دجلة والفرات العظيمان لنقص كبير في المياه. البحيرات تجف شيئاً فشيئاً، والتصحّر يأكل البلاد. كل شيء جميل ينتهي لذا سيطلق فنانون وعشاق البيئة وناشطون حملة واسعة لإظهار مخاطر الجفاف والتصحّر التي يواجهها العراق، وقد نصنع ضغطاً محلياً أو حتى دولياً».

باختصار

أصبحت البحيرة التي يبلغ عمرها آلاف السنين، مؤشراً لجفاف بحيرات أخرى بسبب «الإهمال»، كما يقول ناشطون

■■■

غرّد الرئيس العراقي برهم صالح على «تويتر»: «جفاف بحيرة ساوة تذكير قاسٍ بخطورة التغييرات المناخية التي تهدد وجود العراق ومستقبله، وكذلك المنطقة والعالم»

■■■

قد يكون موت بحيرة ساوة مؤقتاً إذا نجحت الجهات الرسمية المسؤولة في إنعاشها

وأخيراً

أعياد المقبرة... المبهجة!

سعدية مفرح

أستغرب تماماً من الشعور بالضيق، وأحياناً الكآبة التي يقول بعض الناس إنّهم يعيشونها عندما تأتي سيرة الموت أو المقبرة، فأنا على العكس منهم، لا أعيش بهجة مفاجئة وسط هذا النوع من الأحاديث المتعلقة بالموت والمقابر وحسب، بل إنني، في أحيان كثيرة، أستدرجها استدراجاً لاستحلاب لذائذي الخبيئة في ذكرياتي مع من رحل في الموت ممن أحب. فكلّ حديث عن الموت يفضي إليهم، وكلّ سيرة مقبرة تحيل إلى أمكنتهم في ما أعرف من أرض في الدنيا. لا أدري إن كان هناك من يشبهني بتلك المشاعر أم لا، لكنّني أريد أن أحتفظ بها دائما لتكون زاداً حقيقياً لي في طريقي نحو النقطة الأخيرة لي في هذه الحياة.

منذ خصّني الله بكومة تراب في المقبرة عليها شاهد يحمل اسماً أعرفه جيداً، وأنا أعيش الموعد منتظراً مع المقبرة. لكي يبدأ عيدي الحقيقي ينبغي أن يبدأ في المقبرة. أزورها بعد صلاة العيد مباشرة، لأجدني أعيش بهجة غير متوقعة لمن لا يعرفون تلك المواعيد الحقيقية مع الحياة وسط شواهد الموت. خلال العامين الأخيرين، تضاعفت حصّتي من المقبرة، وتشكلت في هيئة قبرين متباعدين قليلاً في جغرافيا المكان، لكنّهما متلاصقان عبر حبل سرّي في واقع الموت والحياة.

أمي وأخي الأكبر رحمهما الله في المقبرة ذاتها. بينهما شارع ترابي ضيق، وبضعة قبور وبضع سنين قبل الموت وبعده أيضا. عندما انتهيت من صلاة العيد هذا العام، كان قلبي يدقّ باتجاه موعدي الأثير مع المقبرة. أعرف أنّني أزورها في غير ذلك الموعد الذي يتكرّر مرتين في العام، لكنّ موعدي العيد مختلفان جداً، في البهجة والألفة والمشهد الجماعي الذي يجمع في سياقه الكبار والصغار في أناقةٍ لافتةٍ ودموع تحاول ألّا تكمل مسيرتها وسط الفرح المعتاد. وصلت إلى المقبرة بصحبة أفراد العائلة لنجدها وقد ازدحمت بزوّارها في طقس صباحي منعش، وسط ضباب مفاجئ زاد المكان الترابي جمالاً.

يستغرب كثيرون ممن يعرفونني عندما أصف جمال المقبرة وألفتها وشعوري بالأنس في وسطها، فهي، كما يعتقد كثيرون، مكان الموت وعنوان الميتين الذين لا يردّون التحايا، لكنّها بالنسبة لي مكان الحياة في اكتمالها النهائي، وعنوان من نحبّ، فنحن لا نزورها إلا لشعورنا بالشوق لمن افتقدناهم الفقد الأبدي، فنذهب لنحييهم ونسلم عليهم وكلنا يقين، لا يهم إن كان حقيقياً أم لا، بأنّهم يسمعون ويفرحون ويردّون علينا التحايا والسلام.

كانت النباتات والشجيرات الصغيرة التي نبتت فوق القبور، وبينها خلال فصلي الشتاء والربيع قد تحوّلت الآن إلى اللون الذهبي، ولم يبق من اخضرارها إلا ما حرص بعض الأهالي على سقياه بالقرب مما يخصّهم من قبور. فنتج عن ذلك مشهدٌ ملونٌ متسقٌ في ذاته خالص الجمال والأناقة، ساهم في تعزيزه بوجداني، وأنا أجيل النظر في ما حولي، في تنوعات الناس في أشكالهم وأزيائهم. فالمقبرة عامّة، وترتيب القبور فيها لا منطق له سوى تاريخ الموت. وهكذا اختلطت الأسماء بعضها مع بعضها الآخر في هدأة الموت وانتظام الصفوف لتتصاعد الهمهمات بالدعاء والبكاء الخفيض، وبعض الحكايات والأخبار التي يحرص الأحياء على إبلاغها إلى الأموات على شكل فرح وبهجة.

> أنتعش برائحة التراب وقد اختلط بمياهٍ يرشّها الزائرون، فيتكوّن ما يشبه المطر برحلة عكسية من الأرض إلى السماء

أنتعش برائحة التراب وقد اختلط بمياهٍ يرشّها الزائرون على قبور أهاليهم، فيتكوّن ما يشبه المطر في رحلة عكسية من الأرض إلى السماء، وتنتعش الروح بذكريات المطر التي تجمعنا بمن فقدنا فيكون المعنى الحقيقي الكبير والجميل للحنين.

الحنين... السلاح الأقوى الذي نشهره بوجه الذكريات الجميلة والأليمة أيضاً، فيسلمنا إلى غياب من نشعر بالحنين تجاههم. رحمهم الله جميعاً... ورحمنا نحن أيضاً!

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 بيزة**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **دينارات**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**